

تمظهرات الآخر - المرأة - في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج

الأستاذة: مازية حاج علي

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

إن مهمة الرواية الأساسية هي تحليل المجتمع ونقده، جاءت لتعبر عن قلق ومعاناة الإنسان النفسية ولتصور أزمة الإنسان مع أخيه الإنسان بعد انحطاط القيم والأخلاق الإنسانية، والأديب الحق هو القادر على تحمل هموم مجتمعه، ويحرص عليه حرصه على نفسه، وحتى عندما يرسم صورة سلبية لمجتمعه - وهذا الأمر كثير الورد في الآثار الأدبية - فإنما تكمن وراء تلك الصورة رغبة عارمة في الإصلاح والتغيير، لا الإساءة إلى هويته التي ينتمي إليها ماديا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا.

وفي الرواية العربية يحضر « الآخر بوصفه اختلافا دينيا أو ثقافيا، يشكل أفقا للذات، وأحيانا جزءا من النظرة إلى الذات سواء تقدم باعتباره شريكا مسالما أو في هيئة كيان غاز أو صفة محتل متغطرس أو مفاوض مهادن أو تقدم إلى مساحة الوعي كاختلاف جسدي أو ثقافي إلخ»¹، لذلك فإن أحد الشروط الأساسية لإنجاح التواصل الحضاري مع الآخر هو الاحترام المتبادل والافتتاح بفكرة تعددية النماذج الحضارية، وحق كل ثقافة أن تبقى على مقومات هويتها دون التحاق أو انسحاق بحضارة أخرى.

وإذا كان « المهم أن الآخر حاضر وبكيفية وجودية في المجال العام للوعي بالذات، ولذلك فهو يمثل وبشكل مفارق أحيانا موضوع إغراء ومصدر حذر وحيطة في نفس الوقت، ويبدأ الآخر حين يبرز الوعي بالاختلاف وينتهي عندما نعترف هو وأنا بكوننا نشكل ذواتنا مغايرة، بهذه الطريقة نحتاط من التهديدات النهائية ومن أشكال التماهي الحقيقية التبسيطية أو الوهمية»²، إذن التعايش والتواصل بين الأنا والآخر يكون باحترام الخصوصيات الهوياتية لكل طرف منهما.

تمظهرات الآخر - المرأة - في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج / مازية حاج علي

وانطلاقا من النص الجزائري الذي بين أيدينا - نموذج طوق الياسمين لواسيني الأعرج - سنحاول استنباط الصور والتخييلات الاستيهامية التي تحكم تفكير كاتب هذه الرواية حول الآخر ونظرتة إليه، إذ تبدو هذه الرواية رواية ذاتية تعبر عن ثقافة شعبه وهويته (أناه) وهو بطلها. متوخين الإجابة عن عدد من الأسئلة المتعلقة بالأفكار المسبقة والسطحية التي تؤدي إلى التفوق على الذات والعداء للآخر، فاللقاء معه بداية كان بعيون أنثى (المرأة العربية والغربية)، لذلك تمظهر جنسيا في أكثر من موقف، أكثر منه تجليا فكريا وأيديولوجيا وموروثا ثقافيا، بعدها تنتوع صورة الآخر مضيئة تراكما معرفيا على مخيلة الأنا التي تواجه مشاكل نفسية (عقدة الارتباط والزواج)، زد على ذلك المعاناة والرفض والاضطهاد من طرف هذا الآخر البعيد دينيا، وعلى امتداد رحلة الذات الساردة التي تصادف عدة آخرين يختمها الروائي نهاية مأساوية تنسع للقراءات المتنوعة.

تجليات الآخر "المرأة" في رواية طوق الياسمين:

طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين) رواية ذاتية، للروائي العالمي واسيني الأعرج، وتحتوي على أربعة فصول مرتبة على النحو الآتي، الفصل الأول: سحر الحكاية، الثاني: الطفلة والمدينة، والثالث: بداية التحول، أما الرابع: مسالك النور. عدد صفحاتها 288 صفحة، صادرة عن المركز الثقافي بالدار البيضاء المغرب، ط1، 2004م.

الرواية تتحدث عن قصتي حب تجمع بين أربعة أبطال في باريس، أين التقى الصديقان "عيد عشاب" و "السارد" من الجنس الرجالي الجزائري بـ "مريم" الفلسطينية و "سيلفيا" الفرنسية من الجنس النسائي، وذلك أثناء دراستهم في الجامعة معا، ثم بعدها إقامتهم في مكان واحد لاحقا، لتنشأ علاقة حب بين السارد الذي يشتغل كاتبا في الجريدة وروائيا (من الطبقة المثقفة في المجتمع) ومريم التي كانت طالبة جامعة آنذاك. وأيضا نشأ الصدف أن يحب عيد عشاب سيلفيا إلى حد الموت.

تتميز الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج بالانفتاح على الآخر، وتتجه نحو الرقي بالقيم الجمالية والثقافية المتنوعة للذات، وهذا ما يجعل نص طوق الياسمين خطابا إشكاليا نابعا عن إنسان مثقف يفسح فيه المجال لتداخل الخطابات الحضارية «لكي تمارس حضورا حواريا عبر ممارسة نوع من التحريف الدلالي يسمح للسياغة السردية الجديدة للأحداث التاريخية أو الأساطيرية أو العقادية أن تمارس نوعا من الحضور المجازي في الزمن الراهن

أو أن تتلبس به كأحداث ووقائع أو ممارسات إيديولوجية وسياسية يقصد من إعادة إنتاجها روايتها وتمثيلها رمزياً أن العنف والفتنة في واقعنا العربي الإسلامي يشكلان قدراً يخترق حدود الزمان والمكان ويتعدّر تطويقه»³.

الروائي واسيني الأعرح في " طوق الياسمين" مقبل على التعايش الثقافي مع آخر يشبهه، يحبه ويتجانس معه، يريد أن يظهر هويته الذاتية للعالم من خلال « وجود الآخر وحضوره والوعي به، لأن إدراك حضور الآخر يؤدي إلى شعور الذات بالاختلاف والتميز كما أن الوعي بالذات والهوية يتنامى ويزداد عندما تعقد الذات المقارنات مع الآخر في نواحي التضاد والاختلاف أو التوافق والتشابه، وعندما تعين الذات الآخر وتظهر الفروقات الخلقية والخلقية والإيديولوجية تبدأ الهوية بالتشكل ويبرز الوعي بوجود هوية الآخر أيضاً»⁴، فالحكمة من حوار الحضارات هو التعرف على الهويات الثقافية المختلفة للآخر، وكذلك تحقيق التقدير والقيمة التواصلية وتبادل الأفكار، والاستفادة من خبراته في الحياة عبر معاشته والاحتكاك به، واكتساب القدرة على تفادي أو مواجهة خطره على الهوية الشخصية، وربما النهل من علومه في جميع الأصعدة.

1- نموذج الآخر " المرأة العربية" عند الأنا العربي.

تمثل " مريم" - المرأة- الآخر بالنسبة لذات السارد أو الراوي- الرجل-، ويعلن لنا الروائي منذ البداية حضورها الكبير في ماضيه وهي حية ترزق، وفي حاضره أيضاً رغم غيابها عن حياته بسبب فعل الموت الذي فرق بينهما، فيقول السارد: « في مثل هذه المدينة، في مثل هذا اليوم الشتوي البارد انطفأت مريم وهي تعطي الحياة لكائن لم تبقى معه إلا دقائق معدودات رأته ثم تمت: أتمنى أن تكون أنت أول من تراه سارة.. ونامت بهدوء لم يستطع أحد إيقافها بعد ذلك، وكأنها فجأة أصيبت بتخمة حب من محيطها القاسي»⁵.

وتثبت الآخر مريم حضورها رغم أنها شخصية غائبة في الرواية، وذلك مقابل الأنا الرجل العربي الذي بقيت حية في وجدانه، فهذه المرأة كانت الإشكال الرئيسي في السرد؛ هي الأساس والمركز والطريق المهيمن والبؤرة وما إلى ذلك من الصفات التي تقيد اختلال صورتها، يعبر الراوي عن مدى تعلقه بها، « أنت امرأة أعرفها وتهرب تفاصيلها مني وجه جميل لولا بعض الصفرة التي تعطي الانطباع بالمرض على الرغم مما كان يبدو عليك من سعادة. خانة صغيرة تنزلق بهدوء على الجهة اليسرى من رقبتك. أتذكرين أني ذات ليلة

تمظهرات الآخر - المرأة - في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج / مازية حاج علي
وضعت قطرات الويسكي وشربتها واحدة واحدة. مكانك الحساس نقطة ضعفك في الفراش»⁶،
لقد عشقت ذات السارد هذه المرأة لدرجة حفظت تفاصيل جسمها كلها وذابت فيها، كما نلاحظ
تأثر الأنا العربية بالثقافة الغربية والأخذ من هويتها مثل عدم ممانعة العلاقة الجنسية خارج
إطار الزواج.

ويواصل السارد محطات تذكره للآخر، فيصف ولعه الشديد بهذه المرأة التي سحرته
بجمالها العربي الفتان، «أمطار نهايات الخريف، وهذا الشتاء يذكرني بك. أراك كما تعودت
دائماً أن أراك في مثل هذا الموسم بصفيرتيك المنكسرتين على صدرك وابتسامتك الساحرة،
ولباسك البنفسجي الفضفاض الذي تشتهين ارتدائه، لأنه كان يقوي لديك شهوة الأمومة،
والكوفية الفلسطينية التي لا تغادر عنقك، وأنت تقولين: ليس لباساً فقط، ففلسطين حتى وهي
بعيدة تمنحنا الكثير من الدفاع. في قلبك دوماً مخاطرات ماسة* التي عندما أحببت رجلاً
تعرت عن آخرها ولبست وطناً بكامله»⁷.

تحتل هذه المرأة مكانة كبيرة لدى السارد، وتثير فيه جملة من التساؤلات، فيولجها
اهتماماً كبيراً ويمنحها مساحة كبيرة في السرد، «أنت هي أنت عياناً هادئتان، تبحتان عن
شيء ما يزال بعيداً، تصفان من حين لآخر بخجل كبير. على اليد اليسرى ينام سلك نحاسي
صغير على شكل إسورة ذهبية وعلى معصم اليد الأخرى بقية الأساور الرقيقة الأخرى -ست-.
أنف دقيق نافر كفرس جموح لا تروضه الفرسان، ترابط تحته عبر خط مستقيم يتعمق كلما
ضحكت شفتان متفتتان وممتلئتان تبرزان أكثر كلما مسهما قليلاً أحمر الشفاه البارد ووجه
طفولي نبوي الخطوط والإشعاع يغتسل وسط خمرة معتقة»⁸.

لكن الآخر "مريم" ترغب في الارتباط والزواج من السارد، وتعتبره نهاية منطقية
لقصة حبهما الكبيرة وللعلاقة الحميمة التي جمعتهما، تقول: «ما تهريش من السؤال المركزي،
قلت لك ما دمنا نحب بعضانا. نتزوج وخلص ونعيش الحياة التي تريد وكما نريد. اليوم
نفرئوها يا هاك يا هاك تعبت عيبت عيبت عيبت. أنا كبرت ثلاثون سنة. نتزوج ونعيش لسنا
أفضل من بقية البشر الذين يحيطون بنا.»⁹، إن موقف مريم هو موقف لأي أنثى تبحث عن
ما بعد الحب، ووصلت إلى مثل هذا العمر التي يعتبرها فيه المجتمع الجزائري فيه عانسا
وعالة على أهلها.

ويبدو أن لأنا الراوي موقفا مخالفا من الزواج، ورؤية أخرى للحب فهو ينظر إليه نظرة السجن المقيد للحرية، في الحقيقة الذات هنا لا تعرف نفسها ولا تستطيع أن تحدد بالضبط من تبحث عنه «يا مريم. أنا كذلك أحبك ولكني لست مؤهلا لأن أكون زوجا، أعرف أنني سأأخذك بكلامي هذا ولكن أفضل من أن أخذلك وأنا زوج لك، ربما كنت لا أستحق قلبك، أنت أكثر عفوانا مني وأكثر صفاء وبالنسبة لي كل شيء ما يزال ملتبسا ومرتبكا. أنا رجل لا يعرف نفسه ما يزال يبحث عنها»¹⁰، إذن بطل في الرواية أو الشخصية الرئيسية فيها لا هوية له، فهو لا يعرف نفسه حتى، فكيف لها أن يقرر حاضره أو مستقبله وكيف له أن يكتشف الآخر من حوله.

وحتى عندما يستشير صديقه من الجنس الرجالي "عيد عشاب" يحذره من الزواج منها رغم أنه يعرفها ويعرف أنها عربية مثلهم. بل هو نفسه يبحث عن الزواج من سيلفيا المرأة الأجنبية «يا محايينك احذر مريم نمرة شرسة جن أحمر ما تصلها حتى تاكلك؟ إيه أنت راك تلعب بروحك. هي هكذا ما تقدر تشوف حتى واحد إلا نفسها: أنت الرجل الطيب والهادئ كبحر تحب مريم؟ ستدخنك كسبجارة ثم تضعك تحت قدمها الأيمن حتى تكون الرفسة قوية، اخطيك يا خو خاف على روحك»¹¹، فهنا الذات الرجالية تعتبر مريم امرأة أنانية تحب ذاتها فقط، لأنها كانت تمارس أبسط حق من حقوقها وتطالب به، ولكن رغم ذلك كانت مريم نفسها مرآة عاكسة للأنا الرجالية التي لا تقدر على تحمل مسؤولية واحدة ولا تقوى على اتخاذ قرار بشأن مصيرها.

ومن هنا يصبح الآخر الشخصية الأنثوية في الرواية ذات حضور متميز وقوي، فمريم تدرك ما يجب أن يحدث وتفكر بوعي ثقافي، تعلم أن عليها الزواج لكي تكون علاقتها بالراوي مبنية على أسس صحيحة تثبت بها أمامه وأمام المجتمع متانة الارتباط وتأسيس عائلة، «تلموني على رغبتني في الزواج؟ أريد أن أرى أبنائي وأن أذهب وأنا شبعانة منهم هل هذا كثير علي؟ لا أريد أن يحصل لي ما حصل لأمي ذهبت وهي لا تعرف إذا ما كان يجب عليها أن تحقد على والدي الذي لم يترك لنا فرصة الشبع منه واللعب معنا كبرنا كالمقطط وهي لا تعرف، بعضنا تزوج وهي لا تدري أن شيئا من هذا حصل. لا يا خويا اسمح لي ثلاثون سنة بزاف عليا ما نقدرش»¹².

تمظهرات الآخر- المرأة- في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج / مازية حاج علي

أمام هذه الظروف القاسية التي عاشتها "مريم" في طفولتها، وتأثرها الشديد بمعاناة أمها أصبحت امرأة لا تطيق الاحتمال أو الصبر على ضعف الرجل الذي تحبه من قلبها، ولكنه لا يستطيع أخذ خطوة معها ولو حتى وعدا بالارتباط منها» لا تعقدي الموضوع أكثر، أحبك ولكني لست مستعدة للزواج ولا لإنجاب الأطفال مازنا أطفالا يا مريم نحتاج إلى رعاية إضافية. لا أريد العودة إلى موضوع الليلة الماضية إنه يؤذيني، ولكن لا تنسى أن عمري يزحف نحو الثلاثين. إذا سمعت امرأة تقول لك إن أمرا مثل هذا لا يعينها كثيرا، اعرف أنها تكذب عليك وعلى نفسها، ربما كانت التربية هي السبب ولكن هذا هو القماش»¹³، وطبعا المرأة العربية تتفهم وضع الرجل العربي المهزوم وغير القادر على اتخاذ موقف معها وتقدير مصيره، تتسامح مع حاله وتحترم رغبته في عدم الزواج وتغفر زلاته وأخطائه معها فقط لأنها تحبه وتعني تماما مدى حبه هو لها.

لا يغير الآخر- مريم- من قناعاتها في أنها امرأة في سن الثلاثين ومن دون زواج رغم احترامها لرغبة الذات الرجل- السارد-، وعدم التأثير عليه بأي وسيلة كانت، وكأنها تقول كل شخص يفعل ما يشاء، فتصر على موقفها المنبعث عن ثقافتها العربية» هكذا ولا شيء غير ذلك، عندنا في البلدة المطلقة أحسن بكثير من البائرة.. اطمئن سأكون المسؤولة الوحيدة عن خطئي ولن أجزرك ورائي»¹⁴، وما يؤكد نضج الآخر هنا هو تحملها لمشاكلها المتمثلة في التورط بعلاقة غير شرعية، وبهذا كانت شخصية قوية على عكسه هو شخصية خائفة.

إن ذات السارد شخصية مثقفة تعاني عقدة الارتباط، وكان كل ما يهم هذا الرجل هو النجاح والتأليف والكتابة بعيدا عن حياته الخاصة التي لم يكن يهتم بها سوى وجود مريم، وها هي الآن تحاول تضيق الخناق على نفسه بموضوع الزواج، فإما أن يتزوجها لتكون حاضرة معه أو يتركها تذهب من بين يديه ويفقدها، يقول السارد: «حديث الليلة كان قاسيا. كلانا بقي داخل جزيرته، أنت جعلت من الزواج حالة انغلاق كلي. وأنا حريتي كانت البدء والمنتهى، كل واحد منا وهو يتكلم كان يصغي إلى نفسه أكثر مما كان يستمع إلى الآخر، كل في عالمه بعد أن سد وراءه الأبواب والنوافذ. وحتى النوافذ الصغيرة»¹⁵.

ولا تغيب صورة الآخر "مريم" في ذات الراوي حتى وفي حالة السكر رفقة صديقه عيد عشاب الذي كان يعاني هو الآخر من فراق حبيبته سيلفيا، ويتألم كلاهما من رفض الآخر لهما، يقول السارد: «عندما شريت الكأس السابعة وتخطيت العتبات المعتادة، بدأت

أبحث عن النور المغشي للأبصار الذي تحدث عنه عيد عشاب. شعرت أنني كنت على ضلال وأن عيد عشاب كان يعرف ما يقول لم يكن سكرانا، ولكنه كان خفيفا ولهذا كان يرتفع بسهولة إلى علو لم أكن قادرا على لمسها. وكان علي أن أزيل كل أقال وزني لأصله»¹⁶.

وفي حين لم تكن للذات الساردة القدرة على حسم الموضوع، كان بمقدور المرأة الآخر فعل ذلك، لذا تتخذ مريم موقفا وتحسم أمورها بالزواج من صالح، ذلك الرجل الذي كان دائما محط سخرية زملائه في الجامعة، ولكنه بالفعل أحب مريم وطلبها للزواج قبلت دون تفكير، فقط لأنها تعي أهدافها وما تصبو إليه من هذه الحياة، «في حياتي لم أتصور أنني سأصبح زوجة لصالح. ركض ورائي حتى سحبني نحوه عرف الفجوة التي تركها في غيابك وجعلني أصدق أنا المجنونة بك أنه في النهاية رجل والرجال لا يختلفون كثيرا.. ولكنني أشهد لك اليوم أنني عاجزة عن مقاومة غيابك. هل تدري كم أحبك، وأني كلما تذكرتك رابطت عند النافذة علني أراك. أنا منكسرة وميتة»¹⁷.

وفي المقابل يظهر تأثير هذا القرار على ذات الراوي الذي لا يتمالك نفسه، رغم أنه كان طرفا مهما في صنعه، وهنا يتغير مسار السرد بفعل حصول العقدة التي تقلب موازين السرد الخاصة بشخوص الرواية، يقول السارد: «رأيتك تلبسين وجها آخر. تستعيرين الأفتحة، تضحكين وتقهقهين عاليا، ولكن في القلب كان ينبت شيء آخر أكثر حزنا وأكثر انكسارا، فانكفأت على نفسي وذهبت نحو مصبات بردي الخالية.. كنت بعيدة وكنت قريبا. أنصت لكل الانكسارات والشروحات التي كانت تهز بشكل متتابع وعنيف جدار النفس تاركة الخيبة والمجال مفتوحا لفيضانات المرور والتدفق»¹⁸.

فلا يستطيع السارد الاستغناء عن الآخر "مريم" ولا يقدر على العيش وحيدا بدونها، بل ولا يتمكن من البعد عنها أو نسيانها حتى وهي زوجة لرفيقه صالح، «منذ زمن وأنا أقاومك، ولكن الشتاء يفتح شهيتي للحماقات، كلما عاد الشتاء شعرت بنفسني ممثلة بك ولا أستطيع مقاومة شهوة الكلمات. البرد، والأمطار والتلوج، والإيقاعات الحزينة تقربنا من بعضنا لدرجة النسيان والتلاشي لو تدري كم أحبك، وكم أن عودة الشتاء تؤذيني، لأنني أخاف فقدانك...»⁹، وكأنما حضور مريم يعني حضور السارد وعودته للحياة، وفقدانها هو فقدان لحلاوة البقاء والاستمرار.

تمظهرات الآخر - المرأة - في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج / مازية حاج علي

وحتى بعد زواج "مريم" من صالح يبقى تأثيرها قويا على ذات الراوي، والذي بمجرد مرور شهر من زواجها تعود إليه وتغويه ويقبل هو أن يكون عشيقا لها كما كانت علاقتهما سابقا قبل الزواج «... ولكنك مع ذلك مصرة في النهاية على صلاة ركعتين واستغفار الله ورسوله على ارتكاب المعاصي أية معاصي؟ فتعوزين بالأشجار والشياطين التي تزين الحرام وتسود الحلال. ليس لديك خيار ثالث، إما أن تحبيني والعصافير قد تحيا بفعل الحب، أو تتهارين كوردة برية شحت عليها السماء فينتهي كل شيء»²⁰، إن أنا السارد هنا مفعول فيه في حين أن الآخر مريم هي الفاعل والمغير الحقيقي لمجريات الأحداث؛ فهي من اختارت فعل العودة إلى أحضان السارد رغم علمها بأنها معصية للخالق وتشويه لهويتها العربية وتغيير جذري لثقافتها الفلسطينية.

يساند الآخر الأنا السارد في الوصول إلى غاياته وأهدافه في تحقيق الشهرة والنجومية التي كان يصبو إليها في مجال الصحافة والإبداع، وفي المقابل تطمح "مريم" بأن يتقبل موقفها ورغبتها في الزواج والأمومة، لذلك سعت للحمل من السارد دون الحمل من زوجها صالح «لكنني بحسابات صغيرة تأكدت من أنه منك كما أردته. التحاليل التي أجريناها أكدت سعادتي كنت أريده منك لا منه، عندما عرفت أنها صبية زاد فرحي، لأول مرة أشعر أن الله كان يدللني. سارة هكذا سأسميها سأقول لها عن كل شيء عندما تكبر، وستعفر لي حبي المجنون لك. أشهد أنك الرجل الوحيد الذي مارست معه هذا الجنون»²¹، وكأن الآخر الأثنوي يتسامح مع الذات الرجل السارد ويبني موقفا حضاريا وتعدديا منه معترفا بالاختلاف مع الأنا ويقر بحقه في التعبير أفكاره بعيدا عن ضغوط الإكراه وموجات النفي والإلغاء ويعتبر له ما عليه من آراء ووجود ومشاعر.

وما يميز الكتابة الروائية عند واسيني دخوله في حوار فكري حضاري وجمالي مع الآخر بشكل مفارق عن باقي رواياته، يقول على لسان السارد: «نكتب لأننا نرفض أن نشفى من الآخر، ونرفض كذلك أن ننسى، الحب دائما هكذا أكبر معاند في الدنيا، لا يستسلم إلا لرغباته وشهوته... نعم نكتب لأننا نريد من الجرح أن يظل حيا ومفتوحا. نكتب لأن الكائن الذي نحب ترك العتبة وخرج، ونحن لم نقل له بعد ما كنا نشتهي قوله، نكتب ببساطة لأننا لا نعرف كيف نكره الآخرين وربما لأننا لا نعرف أن نقول شيئا آخر»²²، فالروائي هنا لا يقف عند هذا الحد من التعايش الثقافي، وإنما يتعمد في مرات كثيرة، إن لم نقل في الرواية كلها

انتقاد الحضارات سواء كانت العربية أو الغربية، والهدف من هذا الانتقاد ليس النقد بقدر ما هو محاولة لتغيير الواقع الحضاري.

2- نموذج الآخر (المرأة الغربية) في المخيال العربي:

لابد أن حضور الآخر الأجنبي الدخيل على الهوية الثقافية العربية دورا مهما في سير الأحداث الروائية، وفي معرفة الأنا لذاتها من خلاله، ومعرفته هو باعتباره مغايرا لها الأمر الذي نستشفه عند قراءتنا لرواية طوق الياسمين، إذ تبرز الذات الجزائرية المتمثلة في (عيد عشاب) للوجود والحياة عبر مقابلتها بنظيرها المغاير الفرنسي (صديقه سيلفيا). لحظة اللقاء مع الآخر الأجنبي في رواية طوق الياسمين كانت بين " عيد عشاب" و" سيلفيا الفرنسية"، التي أعجب بها منذ النظرة الأولى « بالضببط هذه الخطوة الأولى عرفت اسمها بعد أن استطعت الخروج من مخبئي من وراء البرادي (الستائر) التي تمكنني من رؤية سيلفيا، وهي تغير ثيابها الداخلية. كانت الخطوة جبارة، دعوتها للقاء خارج البيت بورقة رميتها من شرفتي نحو شرفتها. كنت خائفا، عندما وصلت قدمت لي أحاسيس جورج الذي انسحب بسرعة وتركنا لوحدها». ²³ فهنا الآخر المرأة الغربية المتمثل في " سيلفيا" لا تمنع في رؤية غريب عنها لتفاصيل جسمها، تبدو شخصية متحررة ومنفتحة في تعاملها مع أنا " عيد عشاب".

أما موقف " عيد عشاب" من هذه المرأة الأجنبية فهو منبهر وولع بها لا يستطيع مقاومة إغراءاتها له، يقول: « أشعر بالفعل أن تجربة جديدة في حياتي قد بدأت. المرأة التي كنت أظن أنها ستوبخني لاختبائي وراء البرادي لرؤيتها وهي تغير ثيابها لم نقل شيئا. أكثر من ذلك، فقد حدثتني وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد، يبدو لي أنني بالفعل أسعد مخلوق في الدنيا» ²⁴.

ويحاول الروائي " واسيني الأعرج" أن يبرز حقيقة واضحة للعيان في المجتمع العربي، وهي أنه حضارة تتطمس برضا عربي بل بفعل عربي أيضا، بسبب الإمعان في الأخذ بالمظاهر الغربية التي لا تتناسب مع مميزات الهوية العربية، والإعراض عن المنجزات الحضارية الإيجابية في الغرب، والتي من شأنها النهوض بالمجتمع العربي إلى مواكبة مسيرة التطور العلمي والثقافي.

تمظهرات الآخر - المرأة - في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج / مازية حاج علي

وعلى الرغم من أن العلاقة بين "سيلفيا" والشخصيات العربية في الرواية هي علاقة ود ومحبة واحترام لذاتها، بغض النظر عن الديانة واللغة والمجتمع الذي نشأت فيه، فقد اكتسبت "سيلفيا" ثقة الأنوات العربية عندما تواصلوا بحضارتها وتأثروا عبرها بالمجتمع الفرنسي، واستطاع كل من مريم وعيد عشاب والسارد الاندماج في المحيط الغربي من خلالها، حتى أن "سيلفيا" كانت الوسيط بين السارد و" مريم" ومبعوث الغرام بينهما، «رسائلك تصلني عن طريق صديقتنا المشتركة سيلفيا. تعرف أحيانا أغار من حريتها، أجد أنها تشبهني كثيرا، حل عينيك تدور بيهما؟ أمزح سيلفيا طيبة ومتفهمة وكبيرة القلب وتحبنا وتموت في صديقها عيد وأعرف أنك تساعدنا قدر ما تستطيع»²⁵، فقبول الأنا العربية للآخر الغربي لم يعد شأنًا دينيًا أو عقائديًا فحسب، بل إن الآخر فرض نفسه على الحياة العملية، وأضحى حاجة ماسة في الحضور الكثيف للفعالية الحضارية.

فلطالما وقفت "سيلفيا" إلى جانب "عيد عشاب"، وساعدته في تجاوز محنه ومشكلاته في الإدمان على شرب الويسكي، وكانت حبيبة نصوحة ووفية له «سيلفيا بكت كثيرا. قالت: عندما رأيتك تتقيأ الدم وتضرب رأسك على الحائط، ظننت أنك ستموت، ثم قالت وهي تغطيني قبل أن تخرج: حبيبي قلل من حماقات العرق، أرجوك افعل هذا مشان خاطري»²⁶.

بل وتبادل "سيلفيا" عيد عشاب" مشاعر الحب والمودة الصادقة رغم أنه رجل عربي مسلم، وهي امرأة مسيحية وتكتسب منه لغته، إنها امرأة تحترم خصوصية الأنا ونقر له بحرية المعتقد الديني ومقدساته مهما بدت غريبة وغير مقبولة عندها، تقول: «أرأيت كيف تمر الأشياء الجميلة بسرعة غريبة. من يصدق أن كل شيء بدأ بسؤال صغير ثم وريقة طائشة حطت بين يديك ثم أوراق ورسائل وكتابات صار علي مقاومة اندفاعها فيّ لأصير مثلك في النهاية مريضة بما يمكن أن تمنحه لي الكلمات من سعادة صغيرة حتى ولو كانت مؤقتة، لقد صرت فيّ وأستطيع أن أشهد أنني أحبك أنا التي كانت تظن أنها تهز شهوة الرجال، ولا يهزها رجل مهما كان»²⁷، وفي هذه الصورة تتحدث المرأة الفرنسية العاشقة للرجل الجزائري وتسافر عبر خيالها في طلبه، وتتافس غيرها من أجله.

ويتحول حب "عيد عشاب" لهذه المرأة الغربية إلى نبذ للذات وانبهار بالآخر وتقديس هويته، وكذا الإغلاء من شأنه، لدرجة ترك دينه من أجل حب امرأة أجنبية فرنسية، «أدخلت سيلفيا من جهة الحديقة في لباس يشبه أحد عمال السكك الحديدية بقبعته التي تغطي وجهه.

كنا منكسرين، للمرة الألف يكون رد عائلتها قاطعا لا زواج، أنت مسلم ونحن مسيحيون.. هل هناك شيء قاطع في الحب لا أدري، ولكنني في كل يوم أزداد كرها للحياة والأديان، مع أن جدي شيخ الزاوية الله يرحمه لم يكن هكذا»²⁸.

لطالما كانت الغلبة للطرف الآخر المتمثل في الغرب البعيد عن ثقافة وهوية الشرق، وها هو "عيد عشاب" يواجه خطورة وجبروت الآخر، ويعزي ذاته وفشله في الحصول على ما يريده فيقول: «الإنسان العربي هكذا يولد ويموت في الهم، وكلما رأى شعاعا صغيرا في الأفق شعر بتخمة من السعادة وعندما يقترب يصفعه السراب القاتل. الإنسان العربي لا يعرف أنه كلما خطا خطوة إلى الأمام متحاشيا المزالق السابقة وجد في طريقه من يأخذ بيده ويزج به نحو الحفر والمدافن»²⁹.

وتمانع عائلة "سيلفيا" حبهما الكبير وترفض زواج ابنتهم من "عيد عشاب" المسلم، رغم محاولات هذا الأخير في إقناعهم، حتى أن تأثير الآخر عليه كبير إذ يرتد عن دينه، «هذه المرة طلبت يدها رسميا من والدها، قالوا لي دينك؟ قلت مسلما ولكني أحب سيلفيا، ثم كرر: ودينك؟ قلت بلا دين إذا كان هذا يحل المشكل. والأولاد؟ قلت تسميهم سيلفيا إذا شاعت، بيار، جون، هيلين، ماري، ميمون، محمد... لا يهمني مطلقا، تهمني سيلفيا والبقية كلها تفاصيل، قال أبوها: كلكم تقولون نفس الكلام؟ المشكل أنك مسلم. قلت: سأذهب إلى الكنيسة وأعتنق المسيحية أو اليهودية»³⁰.

فهنا تصوير القطيعة والصراع بين "عيد عشاب" و "سيلفيا" بسبب انعدام التواصل الديني و« بدون الترابط الثقافي الحضاري بين الشعوب والأمم لا يمكن للتعاون وتبادل المصالح والمنافع أن يقوم أو ينهض ولا يمكن لتلك الشعوب والأمم أن تتبذ الصراعات والصدمات مهما كان شكلها ودافعها فكريا أم دينيا أم سياسيا»³¹، لأن العلاقة مع الآخر مرتبطة بالمعتقد الديني له، وكلما كان الآخر قريبا من الدين كان قريبا من الأنا.

ويتجلى التأثير الحضاري في المفارقة التي تحدث للذات الرجالية في مقابل الآخر الأنثوي الذي يغير ملامح الهوية الذكورية ويجعلها تابعة للشخصيات الأنثوية غير قادرة على مواصلة مسارها بدون وجودها؛ أي أن كينونة الذات الرجالية في الرواية لا تتحدد إلا بكينونة الآخر النسوي، والسادد هنا يوضح ذلك « لا شيء سوى أن الدنيا بنت الكلب تلعب بنا كما تشتهي، ولا أحد في مكانه. امرأة تحب رجلا وتريده رفيقا للعمر فيرفض، وهي يريدها رجل

تمظهرات الآخر - المرأة - في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج / مازية حاج علي
آخر كزوجة بكل جوارحه فترفض، وتبحث عن تركها، ورجل آخر يحلم فقط أن يقبل منه
أهل صديقته تزوجها له، ومستعد حتى لتغيير دينه فيرفضون، برك؟ ألم تصب الحياة بجنون
العبيثة واللاجدوى»³².

فتنتهي حياة" عيد عشاب" قهرا على فراق الآخر، لأن حياته بلا معنى دون زواجه
من" سيلفيا"، لتوافيه المنية بعد معاناة طويلة من القرحة المعدية بسبب شرب البيرة والكحول
تحولت إلى مرض خبيث أودى بحياته، وتحزن" سيلفيا" على موته وتعتبر نفسها مسؤولة على
ذلك، وتتصح صديقها السارد بالعودة إلى أحضان مريم والزواج منها، « بالنسبة لعيد عشاب
الله يرحمه ويسكنه فسيح جنانه، سيظل في قلبي أبدا ولا توجد أي قوة في الدنيا ستنزعه مني،
بما في ذلك الزواج الذي يريده والدي. ماذا فعل الزواج بكما؟ لا شيء مازلتما مثل البارحة بل
ازددتما اشتعالا»³³.

كانت" سيلفيا" صديقة وفيه للكل سواء" مريم" أم السارد و" عيد عشاب"، وعندما
توفيت مريم كانت المؤنس الوحيد لذات الراوي بعد وفاة صديقه المقرب" عيد عشاب"، ووقفت"
سيلفيا" معه في أصعب المواقف لتهونه عليه بما استطاعت من قوة، « تبعنتي سيلفيا كانت
مثلي صامتة، قطعت معي البهو وكل الأدرج وهي كذلك لم تركب المصعد عند المخرج،
دفعنتي عند الزاوية المضللة وخارج الضوء. ارتمت على صدري وتركت العنان لنحيبها، كانت
تبكي مريم وكأنها كانت تبكي كذلك عيد عشاب، مسدت على شعرها بدون أن أتكلم. كنت
عاجزا عن فتح فمي، كل طاقتي كانت متلاشية»³⁴.

وبينما تنتهي رحلة" عيد عشاب" في الحياة، تستمر حياة" سيلفيا" التي تتزوج رجلا
يمثل هويتها الثقافية، من رجل فرنسي الأصل مسيحي الديانة، وبعد مرور عشرين سنة تلتقي
السارد في المقبرة التي دفن فيها عيد عشاب ومريم، « أنا أنجبت اثنين مارسيل وأنطوان
وننتظر مولودا ثالثا ربما كان بنتا، زوجي يريد ذلك. عرفنا من الطبيب أنها بنت، أقول لنفسي:
سأسميها سارة، تعرف سخافة الأقدار. كان يمكن أن يكون عيد بيننا الآن وهو الآن يلعب مع
أبنائه ولا يعدو وأن يكون كلما حصل مجرد كابوس، ولكن...»³⁵.

إن ما يصبو إليه الروائي" واسيني الأعرج" في ختام رواية" طوق الياسمين" هو أن
يخبرنا بأننا أخذنا من الآخر أسوأ ما فيه، عندما اعتبرنا الهوية مجرد منفعة متبادلة، فلن
يصبح العربي أمريكيا أو فرنسيا حتى لو ولد وعاش هناك، فالنواة الصلبة في الهوية تبقى جذرا

أساسيا فيها تعود إليها بالحنين أو من خلال تصنيف الآخر لنا أو من خلال انفتاحه وانغلاقه علينا.

إن الاعتراف بالآخر كما هو عليه وقبول التعددات الثقافية والاحتفاء بهويته الحضارية هو ما يميز "رواية طوق الياسمين"، والروائي "واسيني الأعرج" يقر بحقوق الآخر في التعايش السلمي، وبهذه الصفة يحمل شرعيته الإنسانية والفكرية والحسية في المجتمع، ذلك أن هوية العربي (الجزائري) تظهر من خلال الوعي بالآخر الغربي (الفرنسي) والإحساس بوجود الاختلاف والتباين بين الذات والآخر.

أسس الآخر (المرأة) حضوره في البطولة الروائية، وتمثلت صورة المرأة ضمن نماذج متعددة يأتي نموذج المرأة العربية في مقدمتها، ثم المرأة الغربية الفرنسية، وقد شكل حضورهما منعطفًا بارزًا في مسار السرد الخاص الذات الرجالية، حيث كان الآخر سببًا في تغيير الرؤى والأفكار والقناعات والهوية الثقافية التي تقوم على العطاء الحضاري وتطور الإنسان نفسه.

يتولى الروائي "واسيني الأعرج" في رواية "طوق الياسمين" مهمة الدفاع عن فكرة الحوار الحضاري ومقولة التعايش مع الآخر بكل عقلانية وعاطفة معا، ليس فقط إيمانًا بمبدأ الحوار بوصفه سنة كونية معترفا بها، بل أيضا من أجل رفع الظلم الواقع بحق المبادئ والقيم الإنسانية، وفي مقدمتها القيم الدينية الرفيعة والسامية، وتجاوز كل من الأنا والآخر للخلافات الدينية إلى حوار وتواصل حضاري أسمى وأكثر فاعلية وتأثير.

الهوامش والإحالات:

- 1- محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل (صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 51.
- 2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 3- الطاهر رواينية: شعرية الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج (ملتقى العلامات وحوار الخطابات)، مؤتمر النقد الأدبي: تداخل الأنواع الأدبية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك إربد الأردن، إشراف وتحرير: نبيل حداد ومحمود درابسة، عالم الكتب الحديث، 22-24 تموز 2009م، ص 672.
- 4- جان نعوم طنوس: صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر، دار المنهل اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1429هـ/ 2009م، ص 394.

- تمظاهرات الآخر- المرأة- في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج /أ/ مازية حاج علي
- 5- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2004م، ص 20.
- 6- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 210.
- * ماسة: شخصية من شخصيات الرواية، صديقة مريم والسارد في الدراسة، تحمل هوية فلسطينية ثورية استشهدت مع رفيقها في سبيل الوطن.
- 7- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 36.
- 8- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 77.
- 9- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 58.
- 10- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 87.
- 11- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 45.
- 12- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 70.
- 13- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 130.
- 14- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 186.
- 15- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 185.
- 16 - واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 48.
- 17- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 103.
- 18- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 211، 212.
- 19- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 26.
- 20- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 134.
- 21- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 107.
- 22- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 223.
- 23- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 23، 24.
- 24- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 24.
- 25- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 147.
- 26- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 138.

- 27- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 27.
- 28- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 33.
- 29- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 96.
- 30- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 108.
- 31- إسماعيل زروخي: حوارات إنسانية في الثقافة العربية، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، دط، 2004م، ص 38.
- 32- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 124.
- 33- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 257.
- 34- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 268.
- 35- واسيني الأعرج: طوق الياسمين (رسائل في الشوق والصبابة والحنين)، ص 282.